# الدولة العثمانية في تاريخ العالم

ترجمة وتعليق

أحمد سالم سالم علي

مفتش آثار إسلامية
المجلس الأعلى للآثار
الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

**Arnold Joseph Toynbee**

The Ottoman Empire in World History, Proceedings of the American Philosophical Society, Vol. 99, No. 3 (Jun. 15, 1955), pp.119 – 126.

**الاستشهاد المرجعي بالمقال:**

أرنولد توينبي، الدولة العثمانية في تاريخ العالم/ ترجمة وتعليق: أحمد سالم سالم علي.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع عشر؛ سبتمبر ٢٠١٢. ص ١١٢ – ١١٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

**حقوق الملكية الفكرية والترجمة والنشر:**

- حقوق الملكية الفكرية محفوظة © للمؤلف.
- حقوق الترجمة العربية محفوظة © للأستاذ أحمد سالم سالم علي.
- النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها.
- غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.
- المترجم والدورية غير مسئولان عن الآراء الواردة في النص الأصلي.

لقد نلت شرفًا كبيرًا عندما تلقيت دعوة من الجمعية الفلسفية الأمريكية لإلقاء هذه المحاضرة في اجتماع هذا العام.[١] فقد كنت دائم التطلع إلى هذا المساء حتى وصلتني الدعوة في العام الماضي. إن سنة ١٩٥٣م تعد بالطبع الذكرى الخمسمائة لفتح العثمانيين للقسطنطينية، فقد ظلت سنة ١٤٥٣م بعد ذلك زمنًا طويلاً في عقولنا، فهي مثل سنة ١٠٦٦م واحد من التواريخ الشهيرة التي تلعب خدعة الثقة، حيث أنهم جاءوا بشكل عظيم جعلنا نعتاد على تقبل عظمتهم دون أدنى شك في ذلك.

دعونا نسأل أنفسنا الآن، ما هي الأهمية التاريخية الحقيقية والنتائج التاريخية للفتح العثماني للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م؟ بمجرد إعادة النظر في هذا السؤال ندرك أن هذه ليست أهمية الحدث في حد ذاته.

قبل سنة ١٤٥٣م ظلت القسطنطينية لمدة قرن من الزمان لا تمثل شيئًا تقريبًا سوى جيب متناهي الصغر داخل نطاق واسع من أراضي الإمبراطورية العثمانية التي أحاطتها من جميع الجوانب. منذ الفتح العثماني في تراقيا في (١٣٦٠ – ١٣٦١م) قُطعت جميع الطرق البرية المؤدية إلى القسطنطينية، ليس فقط مع الغرب المسيحي، ولكن أيضًا مع بقية العالم المسيحي الشرقي الأرثوذكسي، وحتى مع الأجزاء المتبقية من الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

في سنة ١٤٥٣م، امتدت الإمبراطورية العثمانية بالفعل إلى الشمال الغربي وصولاً إلى الدانوب السفلى، وإلى الجنوب الشرقي وصولاً إلى أعالي الفرات، وعلى الرغم من انتصار فتح القسطنطينية للسلطان العثماني محمد الثاني – الذى سُمى بالفاتح بسبب هذا الإنجاز – كان امتداد فتوحاته متواضعًا إذا ما قيست بإنجازات أسلافه من أمثال مراد الأول وبايزيد الأول (الصاعقة)، أو خلفائه سليم الأول وسليمان الأول (القانوني).

بصفته فاتحًا عمل محمد الثاني على محو بعض – إن لم يكن كل – الجيوب العالقة من الأراضي الداخلة ضمن نطاق الإمبراطورية العثمانية، التي تركها أسلافه، والتي كانت عند ولايته مازالت في أيدى اليونانيين[٢] أو الفرنجة.

لقد انتزع محمد الثاني القسطنطينية والمورة Morea وطرابيزون Trebizond من اليونانيين، وجلطة وكافا Caffa وتانا Tana من الجنويين، ونجريبونت Negrepont من البنادقة. لكن عند وفاته كان الجنويون لا يزالون يحتفظون بخيوس Chios، و فرسان القديس

(١) يعد هذا المقال الذى ألقاه المؤرخ الإنجليزي الشهير أرنولد توينبي Arnold Toynbee (١٨٨٩ – ١٩٧٥م) في الجمعية الفلسفية الأمريكية ونشر في مجلتها سنة ١٩٥٥م من المقالات الهامة التي توضح فلسفة التاريخ العثماني من وجهة نظر غربية، لقد حاول المؤرخ إظهار مزايا الحكم العثماني إلا أنه أرجعها لخلفية غربية أو أوروبية، وحاول إرجاع سبب تأخر العثمانيين أثناء تقدم الغرب إلى عدم أخذ العثمانيين بالنهج الغربي في التقدم، هذا ولم يقلل المؤرخ من دور التاريخ العثماني في العالم لكنه أهمل دوره الإسلامي إهمالاً كبيرًا وقصر هذا الدور على العناصر المسيحية الشرقية التي دخلت في فلك الدولة منذ دخولها إلى أوروبا في القرن الرابع عشر. لقد قمت بترجمة هذا المقال لأهمية معرفة وجهات النظر الغربية في تاريخنا الإسلامي وكيفية تحليلها وتركيبها بما يوافق أهواءهم. (المترجم) راجع النص الأصلي للمقال:
Arnold Joseph Toynbee, ***The Ottoman Empire in World History***, Proceedings of the American Philosophical Society, Vol. 99, No. 3 (Jun. 15, 1955), pp.119-126

(٢) كلمة يونانيين تدل في كثير من الأحيان لدى المؤلف على البيزنطيين، وذلك لانتساب العالم المسيحي الشرقي في العصر البيزنطي عامة للثقافة والهوية اليونانية. (المترجم)

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية. ISSN: 2090 – 0449

يوحنا يحتفظون برودس، والبنادقة يحتفظون بكورون Coron ومودون Modon، وفي الركن الجنوبي الغربي من المورة كانوا يحتفظون بجزر البحر الأيوني. وعلى الرغم من ذلك كان محمد الثاني سلطانًا عظيمًا، لكنه لم يكن عظيمًا كفاتح بقدر ما كان عظيمًا كمنظم.

لماذا إذن لا يزال تاريخ ١٤٥٣م يقرع جرسًا حتى اليوم، إن لم يكن حقًا ذو أهمية تذكر على الإطلاق؟ لا، لم تكن الأهمية أو ماتزال في التاريخ نفسه، بل في الرمزية التي يحملها هذا التاريخ لجميع الأطراف. كان تاريخ ١٤٥٣م يعني للعثمانيين رمزية الانتهاء الظاهري لغزوهم، ولسياسة توحيد الهيكل الرئيسي للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية، على الرغم من أن الخطوة الحاسمة في العملية التي استغرقت نحو مائة وخمسين عامًا – من البداية إلى النهاية – كان احتلال العثمانيين لمقدونيا منذ ثمانين عامًا سابقة (١٣٧٢ – ١٣٧٣م).

(الهيكل الرئيسي) للمسيحة الشرقية الأرثوذكسية أعني به هنا الإقليم، منطقة المضايق بين البحرين الأسود والمتوسط، والتي كانت تضم في ذلك الوقت سكانًا من اليونانيين والجورجيين والبلغار والصرب والرومان، أي في الحقيقة كل المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس باستثناء الروس. وتضم هذه المنطقة شبه جزيرتين هما الأناضول وشبه جزيرة البلقان.

كانت مقدونيا وليست القسطنطينية المفتاح الاستراتيجي لباقي شبه جزيرة البلقان، وفي الواقع لكل جنوب شرق أوروبا. وقد انتقل مركز الثقل للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية من الأناضول لشبه جزيرة البلقان في القرن الحادي عشر.(٣) لقد أعطى العثمانيون دليلاً قاطعاً على حصافة نظمهم السياسية حين بدأوا في البحث عن ثرواتهم على الجانب الأوروبي من المضايق، ومن ثم الاندفاع ناحية الدانوب قبل التحرك ناحية الفرات.(٤)

كانت سنة ١٤٥٣م بالنسبة لليونانيين ترمز إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية، على الرغم من أن الحدث الحاسم في انهيارها كان غزو القسطنطينية من قبل الفرنجة سنة ١٢٠٤م قبل أن يفتحها العثمانيون بمائتين وخمسين عامًا سابقة. كان سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤م بالفعل حدثًا تاريخيًا. لقد أدى إلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية الشرقية بشكل نهائي، وبين ذلك التاريخ وتأسيس الإمبراطورية العثمانية في القرن الرابع عشر كان الهيكل الرئيسي للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية في حالة من الفوضى. كانت الإمبراطورية الرومانية التي دمرها الفرنجة سنة ١٢٠٤م هي نتاج نهضة القرن الثامن (التي تفككت ولاياتها الوسطى والشرقية إلى أجزاء في بداية القرن السابع، بعد أن كانت وحدة واحدة لمدة مائتي عام، أطول مما كانت عليه ولاياتها الغربية النائية)، هكذا كان المركز الأصلي للإمبراطورية الرومانية الشرقية في وسط وشمال شرق الأناضول.

كان سنة ١٤٥٣م رمزًا أيضًا بالنسبة للروس والفرنجة. فبالنسبة للروس كان يدل على أن السيادة الرومانية على العالم قد انتقلت من (روما الثانية) القسطنطينية، إلى (روما الثالثة) ألا وهي موسكو. كما رأى الروس سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م أنه كان انتقامًا إلهيًا من اليونانيين لخيانتهم المسيحية الشرقية الأرثوذكسية سنة ١٤٣٩م، عندما اعترف ممثلوهم في المجلس الكنسي بفلورنسا بالسيادة الرومانية على الكنائس الأرثوذكسية الشرقية على أمل شراء المساعدات العسكرية للفرنجة بهذا العمل من الردة الدينية. أما بالنسبة للفرنجة فإن سنة ١٤٥٣م تدل على أن المسيحية الغربية قد صارت من الآن قيّمة على الثقافة اليونانية القديمة، حيث أصبح الفرنجة على قدم المساواة مع ثقافة العاصمة في هذا التاريخ. فبحلول ذلك الوقت تعلم الفرنجة المحافظة على كل جزء من التماثيل اليونانية القديمة، وأية بقايا من المخطوطات اليونانية التي تحمل النصوص الأدبية اليونانية القديمة، مع ذلك للأسف لم يهتم الفرنجة الهمجيون في القرن الثالث عشر بما اهتم به أحفادهم في القرن الخامس عشر، إذ أنهم لم يلقوا بالاً لأي من الكُتَّاب اليونانيين فيما عدا أرسطو، ولم يجدوا استخدامًا مناسبًا للتماثيل البرونزية اليونانية القديمة أفضل من تقطيعها إلى قطع صغيرة.

لقد ذكرت أن عظمة محمد الفاتح الحقيقية كانت في كونه منظمًا، لذلك دعونا نلقى نظرة على دستور الإمبراطورية العثمانية الذى وضع محمد الثاني لمساته النهائية. لقد كان مزيجًا من ثلاثة عناصر هي: الطريقة البدوية الأوراسية(٥) في الحياة، والقوى العاملة للشعوب المسيحية الشرقية الأرثوذكسية (بغض النظر عن الروس)، وروح ومؤسسات الإسلام. وقد ورد هذا الموضوع في كتاب كلاسيكي حديث للباحث الأمريكي A. H. Lybyer.(٦)

كان مؤسسو الإمبراطورية العثمانية فرقة صغيرة من اللاجئين البدو الأوراسيين، الذين نزحوا إلى جنوب غرب آسيا قبالة السهوب الأوراسية العظمى، وذلك بسبب الاجتياح المغولي في القرن الثالث

(٣) حدث ذلك بسبب تراجع النفوذ البيزنطي في الأناضول أمام الضغط الإسلامي للأتراك السلاجقة، خاصة بعد معركة ملاذكرد الفاصلة عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م، التي يعدها المؤرخون أكبر كارثة تحل بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، فقد سارع بعدها السلاجقة في عملية أسلمة وتتريك الأناضول التي اكتملت بعد ذلك على يد الأتراك العثمانيين. (المترجم)

(٤) لقد أغفل الكاتب هنا السبب الرئيسي في وجود الدولة العثمانية وتوسعها ألا وهو الجهاد الذي أخذته مرتكزًا لسياستها منذ أن كانت إمارة صغيرة في الأناضول، لذلك كانت وجهتها الرئيسية نحو أوروبا وليس نحو الشرق حيث الأراضي الإسلامية، إلا أنه فسر هذا الاتجاه على أنه بحثاً عن الثروات، فلو أنها تبحث عن الثروات لكان اتجاهها ناحية الأراضي العربية الغنية أولاً، فقد مثلت إيرادات كل من مصر وسوريا فقط للدولة في القرن السادس عشر حوالي ربع الدخل العام. (المترجم)

(٥) تعني: الأوروبية الآسيوية. (المترجم)

(6) Lybyer, A. H., **The government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent**, Cambridge, Harvard Univ. Press, 1913

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكَمة .ربع سنوية

عشر. جلب هؤلاء البدو اللاجئين معهم طريقة الحياة البدوية إلى عالم الحضر، وكان هيكل المجتمع البدوي هو التعايش بين ثلاثة أطراف: الرعاة، وقطعانهم، وكلابهم التي تحمى تلك القطعان. عندما نزح أسلاف العثمانيين إلى السهوب الواقعة داخل المقاطعات المسيحية الشرقية الأرثوذكسية للعالم المتحضر في الركن الشمالي الغربي من الأناضول، جعلوا من أنفسهم رعاة يتولون تدريب رجال هم بمثابة كلاب الماشية لمساعدتهم في إدارة القطعان البشرية. هؤلاء الرجال المستخدمين ككلاب الماشية كانوا أعضاء أسرة العبيد التابعة للسلطان العثماني. يشتمل هذا على الخدمات المهنية المدنية والتابعة للجيش على حد سواء. كانت هذه هي الأداة منذ الفتح العثماني الأول للهيكل الأساسي للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية، ومن ثم تم تنظيمها وإقامتها.

لعب الأرثوذكس الشرقيون في الإمبراطورية العثمانية دوران لا يقلان أهمية عن دور رأس المال. فقد كانوا يشكلون أسراب الفاتحين البشرية، وفي الوقت نفسه كانوا المصدر الأساسي للإمدادات البشرية التي لعبت دور كلاب الماشية. فالإنسان أكثر قدرة على التكيف من الحيوان الذى يرافقه. فقد يكون من الصعب العثور على أي حيوان غير بشرى قادر على أداء دور كلاب الماشية ودور الماشية في نفس الوقت، لكن المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس قاموا بأداء الدورين معاً على نحو فعَّال في إطار النظام العثماني.

كان المجندون الأوائل من قبل العثمانيين من المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، من الأحرار البالغين الذين يملكون خيار التحول إلى الإسلام. أما بعد إنشاء نظام عبيد السلطان في القرن الرابع عشر، كان المصدر الرئيسي لتوظيف المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس هو ضريبة الغلمان. حيث كان يقدم لهؤلاء الأطفال المجندين تعليمًا مكثفًا، تنافسيًا وانتقائيًا، وكان كذلك فكريًا وتكنولوجيًا كما كان بدنيًا، وأصبحوا دائمًا في هذه العملية يتحولون إلى الإسلام بشكل طوعي. لكن ما الذى جعل العثمانيين يفوزون بولاء الأطفال، كما فازوا من قبل بولاء أسلافهم من المتطوعين الكبار، لقد كانت فرصة أتيحت لهم للدخول في الخدمة العثمانية العامة وللحصول على مهنة فعالة، لذلك كانت قابليتهم ترجع جزئيًا إلى طموحهم، لكنها كانت أيضًا ترجع إلى شعورهم الأخلاقي، لسمو أخلاق العثماني المسلم التي تفوقت في أسلوب الحياة على نظيرتها الخاصة بالمسيحي الشرقي الأرثوذكسي، فكانت هي السمة المميزة التي جعلت المجتمع العثماني فعَّالاً على هذا النحو، وبناء على ذلك أصبحت المهنة أو الوظيفة العثمانية مجزية.

على الرغم من أن الأطفال المجندين المستمدين من السكان المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس الخاضعين للحكم العثماني أصبحوا معيارًا للتعيين في نظام العبيد الإمبراطوري، كان هناك دائمًا مصادر تكميلية من خارج حدود الإمبراطورية: على سبيل المثال، الأحرار البالغين الذين يتحولون إلى الإسلام من المسيحية الغربية، وسجناء الحرب من المسيحيين الغربيين، والمسيحيون الغربيون الذين يقبض عليهم من قبل قراصنة العثمانيين الذين استوطنوا ساحل البحر المتوسط في شمال غرب أفريقيا، والروس المسيحيين الأرثوذكس المأسورين من قبل غزاة التتار من الجنوب الغربي للسهوب الأوراسية. في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت لغة التخاطب بين عبيد الإمبراطورية هي اللغة الصربية – الكرواتية، بينما كانت لغة قادة البحرية العثمانية هي اللغة الإيطالية، وكان هذا من الغرائب في تاريخ اللغة والتي كانت شاهدًا على أهمية العنصر المسيحي الغربي في الخدمة العثمانية العامة، وإلى رجحان العنصر الصربي بين المجندين من المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس.

لماذا سمح المسيحيون الشرقيون الأرثوذكس لأنفسهم – كما فعلوا – أن يكونوا أداة لإنشاء وصيانة الإمبراطورية العثمانية التي حرمتهم من استقلالهم السياسي؟ لا يمكننا فهم ذلك دون الرجوع إلى الوراء أربعمائة عام من تاريخ المسيحية الشرقية الأرثوذكسية، التي سبقت إنشاء الإمبراطورية العثمانية من خلال احتلال مقدونيا سنة ١٣٧٢ – ١٣٧٣م. على مدى أربعة قرون شهدت المسيحية الشرقية الأرثوذكسية عصرًا من التفكك العسكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي. لقد أعار المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم لخدمة بناة الإمبراطورية العثمانية لأنهم أدركوا أن هؤلاء الأجانب الفاتحين سوف يجلبون لهم – بثمن مرتفع – الوحدة والسلام، والنظام الذى جاء وقته ليكون من الضروريات الملحة لحياة المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس.

السلام والنظام دون حضارة لا يمكن أن يحافظ على الصحة الاجتماعية، والتي كانت قد فقدت من المسيحيين الشرقيين الارثوذكس خلال التصادم بين اثنين من أبرز القوى السياسية، الإمبراطورية الرومانية الشرقية وبلغاريا، بعد أن تحولت إلى بلغاريا سنة ٨٦٥م. عظمة الحرب الرومانية البلغارية التي حدثت بين سنتي ٩٧٧ – ١٠١٩م كانت كارثة سجلت انهيار الحضارة المسيحية الشرقية الارثوذكسية، والوحدة السياسية المؤقتة التي تم شراؤها بهذه التكلفة الباهظة لم تنقذ الحياة الاجتماعية، والانهيار السياسي والعسكري الذى زاد ضخامة وأدى إلى استنفاذ ما تبقى من قوة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، قبل انتهاء القرن الحادي عشر.

بعد لدغات النورمان والأتراك للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وبعد التعافي من استقلال البلغار عنها، كان غزو الفرنجة للقسطنطينية سنة ١٢٠٤م الذى أتى على البقية الباقية منها، وقد ذهب التشرذم السياسي للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية إلى أقصى مداه فيما بين سنتي ١٢٠٤م و ١٣٧٢م، قبل أن يسجل الاحتلال العثماني لمقدونيا بداية حدوث المد. كان ميراث عصر الفوضى هذا في قلوب المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس هو كراهية الفرنجة والكنيسة الرومانية الذى أصبح سيد عاطفتهم قبل انتهاء القرن الثاني عشر إلى ما بعد افتتاح القرن السابع عشر.

لم يتعهد الفرنجة بتقديم المساعدات العسكرية للإمبراطورية الرومانية الشرقية ضد العثمانيين إلا إذا قامت الكنيسة الشرقية

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية

الأرثوذكسية أولاً بالاعتراف بسيادة الكنيسة الرومانية. تقدم العثمانيون بعرض سياسي جاء فيه أنهم على استعداد للسماح للمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس الاحتفاظ باستقلالهم الكنسي ومنحهم الحكم الذاتي لطائفتهم داخل الإطار السياسي العثماني، تحت رئاسة سلطاتهم الكنسية الخاصة. هكذا كان نفور المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس من الشروط العثمانية أقل وطأة من نفورهم من الشروط الإفرنجية، لذلك اختاروا الهيمنة العثمانية على الهيمنة الإفرنجية. فكان شعار(عمامة النبي خير من قبعة البابا) هو الشعار السائد داخل أسوار القسطنطينية أثناء حصار سنة ١٤٥٣م.

كان مؤسسو الإمبراطورية العثمانية من البدو الأوراسيين قد تحولوا إلى الإسلام أثناء طريقهم من السهوب الواقعة جنوب غرب آسيا إلى الركن الشمالي الغربي من الأناضول، وقد كان التحول الطوعي للإسلام – كما لاحظنا – شرط لا غنى عنه للحصول على وظيفة في نظام العبيد السلطاني، والذي كان يحكم الإمبراطورية في أوجها. من ناحية أخرى، كان العثمانيون المسلمون أحرار المولد غير مؤهلين – زمن أوج الإمبراطورية – للانضمام لنظام العبيد. فالذين يتم قبولهم فقط من الرجال والنساء أحرار المولد هم ذوو الأصول المسيحية. من النظرة الأولى كانت هذه القاعدة ذات المفارقة من أسرار نجاح الإمبراطورية، والتي كانت تضمن دقة نظام المؤسسة الحاكمة، هذه الطاعة كان يمكن غرسها فقط في نخبة ممن حرموا من حريتم الشخصية وتمزقت أواصرهم الأسرية، وهذه الشروط الجزائية لم يكن من الممكن تطبيقها من قبل حكومة مسلمة على الأحرار من ذوى الأصول الإسلامية.

إن مساهمة الإسلام الأساسية في بنية الإمبراطورية كانت في نظام الحكم الذاتي للطوائف على أساس الملَّة وليس على أساس الإقليم. فقد تم تنظيم شعوب الإمبراطورية في جماعات ملية تتمتع بالحكم الذاتي، من المسلمين السنة، والمسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، والأرمن الجريجوريون اليعاقبة، واليهود، إلى آخره، والتي كانت تتداخل مع بعضها البعض جغرافيًا، وكانت كل واحدة منها توازى كامل أراضي الإمبراطورية. كان هذا النظام القائم على الحكم الذاتي على أساس طائفي وليس أساس إقليمي يسمى بنظام الملة، والذى ورثته الدولة العثمانية من الخلافة العربية. لقد أنشئ هذا النظام الدستوري من خلال ما استقته وتأثرت به الحكومات الإسلامية من حكم النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم، حيث كان اليهود والنصارى أهل كتاب مثل المسلمين (وهذا يعنى الناس الذين تلقوا كتابًا مقدسًا من قبل الله الواحد الذى أنزل القرآن على النبي محمد).

كانت النتيجة الطبيعية لهذا الحكم أحقية اليهود والنصارى في التسامح والحماية من قبل السلطات السياسية الإسلامية إذا وافقوا على الطاعة ودفع الجزية. لقد سمح القرآن لنظام الملة بعقوبات في إطار النظام الإسلامي، ولكن النظام في حد ذاته كان معمولاً به من قبل عهد النبي، كما في وقت مبكر من حكم الإمبراطورية الأخمينية Achaemenian، فعلى سبيل المثال تم تنظيم المجتمع اليهودي في بابل كما في نظام الملة العثماني اللاحق.[٧] لقد عمل نظام الملة العثماني في أوج الإمبراطورية العثمانية بشكل فعال للحفاظ على ولاء وإخلاص العناصر المسيحية الشرقية الأرثوذكسية. لقد أعطاهم مزيدًا من الحرية أكثر مما تمتعوا به في ظل الفرنجة إخوانهم في الدين (على سبيل المثال، في جزيرة خيوس قبل ضمها من قبل العثمانيين). هكذا فاز النظام بولاء اليهود القشتاليين اللاجئين الذين مُنحوا حق اللجوء من قبل الحكومة الإمبريالية العثمانية.

كان أعضاء الملة الأقل فاعلية بالنسبة لوضعهم هم المسلمون السنة، إن المسلمين الأحرار في هذه الإمبراطورية المسلمة قد وجدوا أنفسهم في مفارقة، من كونهم متميزين اجتماعيًا في نفس وقت عجزهم سياسيًا. لقد كانوا في الواقع محرومين من إمكانية المشاركة في حكومة الإمبراطورية التي كانت مفتوحة لمواطنيهم من غير المسلمين، كما شاهدنا فإن مسلمي المولد من الأحرار هم فقط الذين كانوا غير مؤهلين بين عناصر الإمبراطورية للانضمام لعبيد السلطان. وعلى سبيل التعويض، كان أصحاب الإقطاعيات الذين دعموا الإمبراطورية بالفرسان الإقطاعيين من المسلمين أحرار المولد، لكن حتى هذه الفرق كانت تحت قيادة العبيد ذوو الأصول المسيحية، وكانت رتبهم أدنى من وظائف الجيش الدائم التي تألفت من العبيد على وجه الحصر.

وعلاوة على ذلك كانت الحكومة المركزية حريصة على التخلص من كل الإقطاعيين الذين في حوذتها، وكذلك كانت حريصة على الوقوف أمام المسلمين الأحرار أصحاب الإقطاعيات، ودعم حقوق الفلاحين المسيحيين الأحرار على حساب رسوم أصحاب الإقطاعات المستمدة من دخولهم. وبالنظر في كل هذا، فإنه ليس من المستغرب أن يكون أول الثائرين في الإمبراطورية على دستورها الكلاسيكي ليسوا من المسيحيين أو اليهود، ولكن من المسلمين أحرار المولد. فقد أصر هؤلاء على أن يُسمح لهم في الدخول في نظام العبيد بعد موت سليمان الأول سنة ١٥٦٦م، وثورة المسلمين هذه كانت قد بدأت في إضعاف الإمبراطورية، لأنها قوضت انضباط نظام الرقيق الذى كان عماد الإمبراطورية. أما العناصر المسيحية الشرقية الأرثوذكسية فلم تبدأ من جانبها في الثورة ضد الإمبراطورية بشكل جدى، إلا بعد بداية القرن التاسع عشر.

هذا التناقض بين ردود فعل كل من مسلمي الإمبراطورية العثمانية وعناصرها المسيحية فيما يخص الدستور يبرز النقطة التي هي من سمات كل الإمبراطوريات من هذا النوع. المهمة التاريخية التي بالفعل كانت تنجزها الإمبراطورية، والتي يمكن رؤيتها من خلال استطلاع تاريخها المنصرم، قد تثبت أن هناك شيء ما مختلف كل الاختلاف عن النوايا المعروفة لبناة الإمبراطورية. لقد كان

(٧) يحاول الكاتب هنا نفى أي أصالة عن أنظمة الحكم الإسلامية حتى أنه أرجع نظاماً من أهم أنظمة الإسلام وهو الحرية الدينية إلى واحدة من الإمبراطوريات القديمة في الشرق الأدنى وليس لنظام الإسلام ذاته. (المترجم)

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية

العثمانيون على سبيل المثال يتحركون بدافع أغراض مدركة، من توسيع حدود الإسلام على حساب المسيحية وجنى المنافع لأنفسهم، وتلقى يد العون من الله، فضلاً عن عائد مناسب على شكل ثروة وقوة يكتسبونها من خلال افتتاح أراضي ومجتمعات غير إسلامية. هذا الغرض المدرك (لغزاة الروم) كان مماثلاً لإخوانهم من الترك التيموريين غزاة الهند، مما جعل إعجابهم بهم في الواقع يتحقق.[٨] ومع ذلك يمكننا أن نرى أن هذا لم يكن أهم نتيجة للأعمال العسكرية المضنية. لقد كانت المهمة الفورية للفتح العثماني في تحقيق الوحدة والسلام، وتنظيم الهيكل الرئيس للمسيحية الشرقية الأرثوذكسية في شبه جزيرة البلقان والأناضول، بعد أن قُسم هذا المجتمع إلى أجزاء وسقط في حالة من الفوضى، هكذا نفذت الإمبراطورية العثمانية هذه المهمة بشكل فعَّال لمدة أربعمائة عام (١٣٧٣ – ١٧٦٨م). لكن المهمة غير المدركة ليست قاصرة على تحقيق هذه المهمة الإقليمية.

كل إمبراطورية مثل الإمبراطورية العثمانية كانت تعمل على إذكاء الروابط الروحية، من المحتمل أيضًا أن تكون عالمية. فجميعهم، العثمانيون والصينيون والإمبراطورية الرومانية، وغيرهم كان لديهم تطلعات جزئية لذلك الرابط الإنساني العالمي للمستقبل، والذى أصبح أخيرًا احتمالاً عمليًا وأيضًا ضرورة حتمية، كنتيجة أخيرة لزوال بعد المسافات من خلال تقدم التكنولوجيا الغربية الحديثة. لم تملك الإمبراطورية العثمانية تلك الوسائل الميكانيكية للاتصالات لأصغر دولة من قيادات العالم في يومنا هذا، مع ذلك كاد العثمانيون في القرن السادس عشر أن يفعلوا بالعالم كل ما فعلوه بمجتمع واحد هو مجتمع المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس، وذلك بواسطة وسائل قديمة للنقل مثل الحصان، وأنواع الأسلحة المتفجرة التي عفى عليها الزمن مثل القربينة والأسلحة التي تعمر من الفوهة.

لقد فشل العثمانيون في فتح قاعدة لعملياتهم في أوروبا الغربية من خلال الاحتفاظ وتوسيع رأس الجسر على الأراضي الإيطالية الذي احتله محمد الثاني في أوترانتو Otranto سنة ١٤٨٠م قرب نهاية عهده، وعن طريق الاندفاع ناحية وادى الدانوب فيما وراء فيينا. وفشلوا أيضًا من خلال تأخر وصول قوتهم البحرية إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط التي وصلت في الربع الأخير من القرن، وذلك لإحباط سيطرة الغرب المسيحي على المحيط الأطلسي والأمريكتين (لقد كان للعثمانيين مصلحة حيوية في الاكتشافات القشتالية للعالم الجديد، ويشهد على ذلك وجود نسخة عثمانية ترجمت إلى العربية من خريطة قشتالية مبكرة مفقودة للعالم الجديد، والتي تم الاستيلاء على أصلها من سفينة اسبانية في اشتباك بحرى في البحر المتوسط).

لقد تعرضوا للضرب من قبل البرتغال في منافسة على سيادة المحيط الهندي والحبشة والهند. وتعرضوا للضرب من قبل موسكو في منافسة للسيطرة على السهوب الأوراسية الكبرى (فشل العثمانيون عام ١٥٦٩م في حفر قناة من نهر الدون Don إلى نهر الفولجا Volga، وحتى في إعادة فتح الاتصالات مع إخوانهم في الدين من المسلمين السنة في وسط آسيا، والتي قطعت بالغزو الروسي لقازان واستراخان الذى كان حدثًا تاريخيًا وحاسمًا مثل الهزيمة التي عانى منها الألمان على نفس البقعة في خريف سنة ١٩٤٢م).

وبالتالي قبل انتهاء القرن السادس عشر وبالرغم من أن الدولة العثمانية تمتد الآن من الجزائر إلى أرمينيا، ومن اليمن إلى القرم، ومن العراق إلى المجر، وجدت نفسها محاصرة في المحيطين الأطلسي والهندي من قبل العالم المسيحي الغربي، وفي السهوب الأوراسية من قبل المسيحية الأرثوذكسية الروسية، وقد أفقدت تلك الأحداث الواقعة في القرن السادس عشر العثمانيين الجائزة التي بها كانوا من الممكن أن يصبحوا الصناع الرئيسيين للقرن العشرين أو الحادي والعشرين. بعد فشلهم في القرن السادس عشر في فتح الغرب وروسيا الأرثوذكسية، وأيضًا فشلهم في نفس الوقت في الحفاظ على فاعليتهم عن طريق الحفاظ على حصر الدخول في الخدمة الإمبريالية على العبيد من ذوى الأصول المسيحية، هكذا بدأ العثمانيون يهاجَمون من قبل الغرب في القرن السابع عشر وما بعده، ومن قبل روسيا الغربية في القرن الثامن عشر وما بعده.

لقد شهد القرن السابع عشر ثورة عظيمة في العلاقات بين الإمبراطورية العثمانية وخصومها من المسيحيين الغربيين والشرقيين الأرثوذكس على حد سواء. فقبل انتهاء هذا القرن كان توازن القوى في التسابق بين الإمبراطورية العثمانية والغرب قد انقلب ضد العثمانيين على المستويين العسكري والسياسي، أما على المستوى الديني فقد عزم العالم المسيحي الغربي على الابتعاد عن الحروب الداخلية بين البروتستانت والكاثوليك، ليصبح متسامحًا نحو الآخرين من (أهل الكتاب) كما يفعل الإسلام دائمًا. هذا التغير في الموقف من قبل العالم المسيحي الغربي تجاه الطوائف المسيحية الأخرى فتح الطريق لنفس التغيير تجاه العالم المسيحي الغربي من قبل جزء من المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس في روسيا والإمبراطورية العثمانية على حد سواء.

تحولت الآن العناصر المسيحية الشرقية الأرثوذكسية للدولة العثمانية من طريقة الحياة العثمانية الرجعية إلى طريقة الحياة الغربية التقدمية، التي كانوا ينفرون منها بسبب التعصب الديني الغربي. اليونانيون الذين كانوا في علاقات تجارية مع الغرب عبر البحر، والصرب الذين كانوا جيراناً مع أسرة الهابسبورج الحاكمة في الدانوب، أخذوا الفرصة حتى يألفوا العادات والتقاليد الغربية، هذا

(٨) لقد أراد الكاتب هنا أن يساوى بين التوسع العثماني والتوسع التيموري الذى انتهج نهج التتار وطريقتهم الوحشية في التقتيل والحرق والتدمير لكل ما مروا عليه من بلدان مع كونهم مسلمي الديانة، وهنا تكون المقارنة مجحفة خاصة إذا علمنا أن العثمانيين لم يتطلعوا أبداً لطريقة التيموريين ولا أساليهم وهذا يتضح في فتوحاتهم التي لم تمس أبداً الحرمات ولم تسرف في سفك الدماء ولم تلجأ إلى الحرق أو التدمير. (المترجم)

فضلاً عن تعلم اللغات الغربية، وهذه المعرفة الجديدة قد أعطتهم قوة جديدة للمساومة في معاملتهم لأسيادهم العثمانيين، بعدما بات العثمانيون مرغمون على التفاوض مع القوى الغربية التي لم يعد في مقدرتهم هزيمتها مجددًا في الميدان. إن عملية تغريب Westernization[٩] العناصر المسيحية الشرقية الأرثوذكسية للدولة العثمانية خاصة اليونانيين، جعلتهم يدخلون من الآن في الخدمة العثمانية العامة دون أن يصبحوا أعضاءً في نظام العبيد للإمبراطورية، ودون أن يعتنقوا الإسلام. إن الحكومة العثمانية كان عليها منح رعاياها هؤلاء شروط أكثر ملاءمة، لأن المعرفة الغربية التي حصلوا عليها مؤخرًا أصبحت الآن أحد الأصول التي لا غنى للحكومة عنها.

لم يرق للعثمانيين أن يعتمدوا في الخدمات العامة ذات الأهمية على (القطعان البشرية) من المسيحيين غير المتحولين للإسلام، ولكن كان هذا بمثابة تغييرات ثورية غير مرغوبة زادت من ضعفهم المجبرين عليه. بعد الحرب الكارثية سنة ١٦٨٢ – ١٦٩٩م ضد تحالف من الدول الغربية، والتي انضمت إليها روسيا الغربية في نهاية المطاف، كانت حرب سنة ١٧٦٨ – ١٧٧٤م الأكثر إذلالاً ضد روسيا وحدها، هكذا أدرك بعض العثمانيين من رجال الدولة أن عليهم إما تغريب النظام العسكري أو الذهاب نحو الانحطاط. لكن بدايتهم في ذلك كانت متأخرة كثيرًا، ويسودها روح التذمر والامتعاض. لقرنين وربع من الزمان بعد موجة المد العسكري في معاقل فيينا سنة ١٦٨٣م، كان من الضروري للسياسة العثمانية القيام بالحد الأدنى من التغريب لإبقاء سياسة الإمبراطورية على قيد الحياة، إلا أنهم طوال هذه الفترة لم يفعلوا إلا القليل وبعد فوات الأوان، هكذا كان عليهم أن يدفعوا ثمن حرصهم على التعنت بخسارة مقاطعة تلو مقاطعة أمام القوى الغربية وروسيا. في هذه الأثناء كانوا يهرعون إلى متاعب أكثر صعوبة على حدودهم، فمنذ العقود اللاحقة لمطلع القرن السابع عشر، كانت العناصر المسيحية الشرقية الأرثوذكسية للعثمانيين مع الصرب واليونانيين يذهبون نحو التغريب دون أي تحفظات على جميع الأصعدة ماعدا الجانب الديني. وبعد اندلاع وانتشار الثورة الفرنسية أصبحوا مشبعين بالقومية الغربية، وبدأ كل من الصرب واليونان والرومان والبلغار في التبلور عن جسد الإمبراطورية العثمانية على شكل دول.

لقد اتبع الأتراك العثمانيون المسلمون في نهاية المطاف نهج تابعيهم من المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس في بداية تحركهم القومي على الخطى الغربية، ولكن حتى ذلك الحين لم تكن أولى محاولاتهم صادقة، حيث علقت المحاولة الأولى للتحرك العثماني الجديد الذى نجح في إعطاء الإمبراطورية دستور برلماني سنة ١٨٧٦م، وذلك لمدة ثلاثين عامًا (١٨٧٧ – ١٩٠٨م) بواسطة السلطان عبد الحميد الثاني في محاولة رجعية لتفعيل الملك الاستبدادي ليكون خلف قوة من الحكم الأوتقراطي المطلق.[١٠] لكن التحرك العثماني الجديد فشل أيضًا في حصاد فرصته المتأخرة عندما استعاد السلطة في النهاية في أعقاب ثورة سنة ١٩٠٦ – ١٩٠٩م، وكان فشله بسبب رسوب سياسته بين اتجاهين. ففي سنة ١٩٠٨م سعت جماعة الاتحاد والترقي التركية لإنقاذ ما تبقى من الممتلكات غير التركية للدولة العثمانية في محاولة لتحويل الإمبراطورية إلى دولة برلمانية متعددة الجنسيات. ولكن قبل هذا الوقت كان قد حدث بالفعل التحرك القومي للشعوب المسيحية الشرقية الأرثوذكسية وكانت بعيدة كل البعد عن أن تكون ضمن النظام الليبرالي العثماني متعدد الجنسيات، وبحلول ذلك الوقت أيضًا كان قادة الفكر العربي التابعين للإمبراطورية – من المسلمين والمسيحيين على السواء – قد أصابتهم عدوى القومية الغربية.

في الوقت نفسه، اهتمت جماعة الاتحاد والترقي بالاحتفاظ بالأراضي غير التركية للإمبراطورية، مما أدى إلى صرف تركيز طاقتهم عن الحركة الوطنية التركية، لذلك ليس من المستغرب في هذه الظروف غير المواتية أن تفقد الدولة العثمانية كل أراضيها غير التركية عدا الأجزاء الكردية الشمالية في حروب أعوام ١٩١١ – ١٩١٨م. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى وجد الأتراك أنفسهم يواجهون سؤالاً عن إمكانية إنقاذ الإمبراطورية العثمانية، بعد أن تم فقد كل الأراضي غير التركية لها، وعن إمكانية بقاء تركيا العثمانية نفسها، ويبدو أن هذا قد أثار أزمة كانت في حاجة ماسة إلى حركة وطنية جديدة بزعامة مصطفى كمال أتاتورك. لقد أظهر مصطفى كمال ورفاقه حنكة سياسية من خلال تركيزهم على تحقيق هدفين عمليين. لقد أرسوا دعائم إنقاذ دولة ذات قومية تركية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية تكون خلفًا لها. وأصروا على إعطاء هذه الدولة التركية – إذا نجحوا في تأسيسها – فرصة عادلة للبقاء بواسطة تغريب طريقة حياتها بكل إخلاص وبصورة شاملة، دون أي تردد أو تهاون.[١١]

لقد تخلى هذا التحرك القومي التركي الجديد نهائيًا وبإخلاص عن أية محاولة لاستعادة الأراضي ذات الأغلبية المسيحية الأرثوذكسية، أو الأراضي ذات الأغلبية العربية للإمبراطورية العثمانية السابقة، وتحديد برنامجها السياسي في تحويل الأجزاء ذات الأغلبية التركية من الإمبراطورية السابقة إلى دولة قومية ذات نسق غربي معاصر. وكان نقل العاصمة من استانبول إلى أنقرة من المفترض أن يكون رمزيًا، على الرغم من أن أصل اختيار أنقرة بدلاً من المدن الأخرى في وسط الأناضول كان عرضيًا أكثر منه متعمدًا،

(٩) مصطلح يعنى انتهاج الأسلوب الغربي في جميع مناحي الحياة. (المترجم)

(١٠) لم يتطرق الكاتب هنا لأسباب إلغاء النظام البرلماني - الذى كان يدعى (المشروطية) - من قبل السلطان عبد الحميد، فقد تسبب هذا النظام في الكثير من الكوارث للدولة فقدت بسبببه الكثير من الأراضي بعد خسارتها الحرب أمام روسيا. (المترجم)

(١١) يظهر هنا تحيز الكاتب غير الموضوعي للنظام الغربي، حتى أنه يجعل خلاص الدولة ونجاتها مكفولة به. (المترجم)

دورية إلكترونية. مُحكَمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ولأسباب استراتيجية لم يخدم موقع أنقرة الجغرافي أو يرمز بشكل جيد إلى أهداف الثورة التركية الجديدة.

تقع أنقرة وسط الأناضول، الذى أصبح مركز الثقل للجمهورية التركية الجديدة، في حين أنه لم يلعب هذا الدور في الإمبراطورية العثمانية المهارة. لقد صنعت الإمبراطورية العثمانية ثروتها من خلال فتح الأراضي المسيحية الأرثوذكسية في جنوب شرق أوروبا. وبعد أن اكتسبت قوة هناك تحولت إلى الاتجاه المعاكس لفتح الإمارات التركية في الأناضول، فقد استمر أتراك الأناضول منفصلين إلى حد ما عن الإمبراطورية فضلاً عن البلاد السنية التي تمثل أساس إمبراطورية الإسلام. وعلى الرغم من أنهم كانوا أحرارًا مسلمين لم يكونوا أعضاءً في الفئة العثمانية المسيطرة، ولكنهم كانوا جزءًا من العنصر الشعبي على غرار المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس. وحتى الآن - على عكس مواطنيهم المسيحيين - كانوا غير مؤهلين حتى بعد وفاة سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م للانضمام إلى صفوف الفئة المهيمنة الذين تم توظيفهم – كما رأينا – من المتحولين إلى الإسلام من ذوى الأصول المسيحية. هؤلاء المهملين من أتراك الأناضول كانوا العنصر الأساسي المقترح من قبل أتاتورك ورفاقه لخلق عضوًا جديدًا في أسرة الأمم الغربية. وكان أكثر ملمحين لافتين في ثورته التغريبية الشاملة، تحرير النساء والاستعاضة عن الأبجدية العربية بأخرى لاتينية باعتبارها وسيلة لنقل اللغة التركية العثمانية. أما عن الرمز الواضح للثورة في الخارج فكان اعتماد اللباس الغربي من قبل النساء فضلاً عن الرجال.

إن تغريب الجمهورية التركية بصدق على هذا النحو كان يبدو أنه آخر فصل في تصفية الإمبراطورية العثمانية، لكن الدولة العثمانية كانت بالفعل إنجازًا عظيمًا وتجربة رائعة، تركت العديد من الأمور المتوارثة. ففي ظل عالم موحد (إلى حد ما كان متوقعًا في الإمبراطورية العثمانية) من البشر الذين يتحركون اليوم، كان هناك على الأقل مؤسستين عثمانيتين رائدتين ضمن كثير مما يمكن أن نتعلمه: هما مؤسسة الخدمة المدنية العامة التي كانت تتكون من بيت العبيد الإمبراطوري، والحكم الذاتي غير الإقليمي لنظام الملة.

إن الخدمة المدنية فوق القومية التي تتميز بالانضباط والتفاني، هي واحدة من الأدوات الإدارية التي يحتاجها الآن بشدة عالمنا التكنولوجي الموحد، ويمكننا أن نحاول استنساخ مزايا الخدمة المدنية العثمانية (التي ربما كانت مستوحاة من قراءة محمد الثاني لجمهورية أفلاطون)[١٢] دون الحاجة إلى تكرار قسوتها. إن الاستقلال الذاتي الطائفي غير الإقليمي للنظام العثماني هو نموذج مماثل للتنظيم الغربي الذى هو مزيجًا من الدول القومية للمؤسسة الغربية التقليدية، والذي أصبح من المفارقات التاريخية أن يتم إبادته – أي نظام الملة العثماني – بواسطة التكنولوجيا الغربية. إن الغطاء المرقع الذى كان يمثل نمطًا تقليديًا للخريطة السياسية الغربية أصبح الآن باليًا في ظل عصر الحداثة الغربية، حيث التحويل السريع بالطائرة إلى رداء حريريّ تتداخل من خلاله دول العالم مع بعضها البعض، مثل هؤلاء من جنوب شرق آسيا وشرق أوروبا الذين تداخلوا من قبل طويلاً عن طريق تدافع أحصنة البدو الأوراسيين.

إن الدولة الموحدة في المستقبل ستكون متعددة القوميات لا تعتمد على قومية واحدة، والغرب الآن ليس جاهزًا لوضع دستور لمثل تلك الدول متعددة القوميات، حيث يظهر الأداء العاجز المنذر بالخطر الذى تبديه الحنكة السياسية للغرب في مواجهة مشاكل الدول متعددة القوميات مثل ملايا وكينيا واتحاد جنوب أفريقيا والإدارات الفرنسية الثلاث في الجزائر.

يمكننا أن نحاول حل هذه المشكلة عن طريق إعادة إنتاج مزايا نظام الحكم الذاتي غير الإقليمي للدولة العثمانية، دون الحاجة إلى إعادة إنتاج الظلم في العلاقة غير المتكافئة بين الفئة المهيمنة على الدولة العثمانية وباقي عناصر الإمبراطورية. لقد دفن جسد محمد الفاتح لكن روحه مازالت تسير إلى الأمام، فسقوط الدولة العثمانية لا يعني انتهاء دورها بالنسبة للبشرية، فبعد انتهائها يمكنها أن تقوم بمهمة أخرى على الصعيد العالمي.

---

(١٢) يحاول الكاتب هنا لصق المرجعية الغربية بكل فعل يعتبره إيجابيًا للدولة العثمانية، ولم يحاول إرجاع أي من هذه الأفعال إلى الشريعة الإسلامية التي كانت أساسًا لكل قوانين الإمبراطورية. (المترجم)

ISSN: 2090 – 0449